شعرية النثـــــــــــــر

المفهوم اللغوي والاصطلاحي للفظة "نثر":

تعني لفظة نثر في هذا أول أطوارها اللغوية، الشيء المبعثر المتفرق، ومن صفات الشيء المتفرق الامتداد والاتساع، والشيء الذي يبدو بهذه الأوصاف يخيل للناظر إليه أنه كثير العدد، ومنه تأخذ دلالة هذه اللفظة معنى الكثرة. يقال: نثر الولد: أكثره. ثم تأخذ هذه اللفظة بعد ذلك دلالة معنوية: يقال: نثر الكلام: أكثره، تشبيها له بنثر الولد ونثر المائدة. والرجل النثر أو النيثران هو الرجل الكثير الكلام.

ثم تدخل لفظة "نثر" بيئة الثقافة العربية بمعنى الكلام الكثير المتفرق، ثم تقتصر على الكلام الأدبي الذي يسمو على الكلام العادي تعبيرا ومعنى، ثم يستعملها النقاد الأدباء على أنها ذلك الكلام الفني غير المنظوم، الذي يقابل الكلام المنظوم. يقول صاحب البرهان في وجوه البيان [ابن وهب الكاتب]:"واعلم أن سائر العبارة في كلام العرب، إما أن يكون منظوما وإما أن يكون منثورا، والمنظوم هو الشعر، والمنثور هو الكلام". ويقول ابن خلدون في الصدد نفسه:" اعلم أن لسان العرب وكلامهم على فنين: فن الشعر المنظوم، وهو الكلام الموزون المقفى [...] وفن النثر وهو الكلام غير الموزون".

النثر إذن، في عرف هؤلاء النقاد، فن قولي غير منظوم، يقابل الشعر ذلك الفن القولي المنظوم، والفرق بين الشعر والنثر في رأيهم عائد إلى هذه الناحية الموسيقية وحسب. والحقيقة أن هذا التحديد لا يستقيم وواقع النثر العربي، فالمتصفح لهذا الفن القولي في أزهى عصور الأدب العربي، في المشرق والمغرب على السواء، يدرك أن به نظما وإيقاعا، كما في الشعر، ولكن الاختلاف بين الإيقاعين يرجع في أساسه إلى المصدر ونوع الإيقاع.

لا يخلو النثر، وخاصة الفني منه، من نوع من الوزن والإيقاع، لكن وجود هذه الظاهرة الصوتية فيه تختلف عن وجودها في الشعر كيفا وكما ومصدرا، فإذا كان مبعثها في الشعر هو توالي التفعيلات بما فيها من حركات وسكنات وتتابعها على نحو منتظم في البيت، فإن مبعثها في النثر، المناسبة والموازنة بين الألفاظ في الجمل والعبارات، وهذا التناسب يكون لفظيا مثلما نجده في السجع والازدواج، أو تناسبا معنويا مثلما نجده في الطباق والجناس. فالنثر الفني

ليس الوزن إذن، هو المزية الوحيدة للشعر، بل هناك مزايا وصفات أخرى، كالجزالة اللفظية والإيجاز في التعبير، وحسن التخييل، وجمال التصوير، وإحكام الصنعة الفنية، وتكثر هذه الصفات والمزايا في الشعر، وتقل في النثر إلى حد الندرة حين تكون اللغة لغة علمية تقريرية دقيقة، لكن لا يمنع هذا الأمر من وجود فنون نثرية كثيرة تضاهي الشعر في شعريته وانزياحيته عن المعيار، ونعثر عن هذا الأمر في اللغة الأدبية الإنشائية عامة وفي النثر الفني بشكل خاص.

اللغة الأدبية الإنشائية:

ويراد بها ما ينشئه الأديب أول مرة حينما تنفعل نفسه بمنظر جميل، أو حادث أليم أو سار، محاولا ترجمة إحساسه ذاك إلى لغة أدبية تأخذ أشكالا متعددة بحسب الأجناس الأدبية المختلفة [قصيدة شعرية، خاطرة، رسالة، قصة، رواية....]. واللغة الأدبية الإنشائية هي تلك اللغة التي تثير العاطفة بجمالها، وتحرك المشاعر ببلاغتها، وليس الغرض منها إبراز الحقائق وبث الأفكار أو تأييدها، بل الغرض الأصيل لها، هو قوة التأثير في نفس المتلقي، قارئا كان أو مستمعا،

لتنفعل نفسه بمثل ما انفعلت به نفس الكاتب. فمتى استطاع الكاتب أو الأديب بعامة أن يثير وجدان المخاطب، ويوقظ مشاعره إلى جانب عقله، فقد بلغ الغاية مما أراد؛ أي الفائدة والتأثير. ولن يبلغ الأديب ذلك إلا بعنصر حيوي زائد عن العنصرين الأولين [الفكرة والعبارة]، ونعني به عنصر الصورة التي تبدو من خلال تشبيهاته الرائقة، واستعاراته البارعة، وكناياته اللطيفة في نسق فني جميل، وقد توضع بعد ذلك في إطار من زخرف القول وموسيقى اللفظ.

النثر الفني:

هو النثر الذي يرتفع فيه أصحابه إلى لغة فيها فن ومهارة وبلاغة، فالنثر الفني يسمو بدرجات عن النثر العادي الذي من خصائصه أنه الكلام الذي نستخدمه في الحياة اليومية، فالعلاقة بين النوعين علاقة تضاد وتنافر، لأن النثر الفني أقرب إلى الشعر منه إلى النثر العادي، إذ يكتسب الكثير من صفات الشعر، فالشعرية ليست في آخر الأمر حكرا على الشعر، بل هي خصيصة للنثر الفني أيضا. ولقد أدرك النقاد القدامى هذه الحقيقة، فقد تجاوز أبو حيان التوحيدي مثلا قضية الأجناس الأدبية، فلم ينظر للشعر بعين التقدير، ولم ينقص من قدر النثر، بل نظر للكلام المنجز، وحلل خصائصه، أي أنه نظر للشعرية في العمل الأدبي، ليخلص أخيرا إلى القول: "أحسن الكلام ما رقّ ولطف معناه [...] وقامت صورته بين نظم كأنه نثر، ونثر كأنه نظم". أما ابن طباطبا العلوي، إنه يرى أن المنثور الذي يستعمله الناس في مخاطباتهم شيء، والنثر الأدبي شيء آخر، وأنواعه: الخطب والرّسائل والأمثال وفقر الحكماء، ويصف هذه الأنواع بأنها "شعر محلول" ويضيف:" فالشعر رسائل معقودة، والرسائل شعر محلول".

ولعل من أبرز ما يمكن أن نمثل به للنثر الفني، رسالة التّهديد واللوم التي كتبها أبو الفضل ابن العميد، وكان وزيراً كاتباً بخراسان، إلى ابن بلكا ونداد خرشيد عند استعصائه على ركن الدولة:

يقول ابن العميد: "كتابي وأنا مترجّح بين طمع فيك، ويأس منك، وإقبال عليك، وإعراض عنك، فإنّك تدلّ بسابق حرمة، وتَمُتُّ بسالف خدمة، أيسرهما يوجب رعاية ويقتضي محافظة وعناية، ثم تشفعهما بحادث غلول وخيانة، وتتبعهما بآنف خلاف ومعصية.

وأدنى ذلك يحبط أعمالك، ويمحق كل ما يرعى لك، لا جرم أني وقفت بين ميل إليك، وميل عليك، أقدم رجلا لصدمك، وأؤخر أخرى عن قصدك، وأبسط يدا لاصطلامك واجتياحك، وأثني ثانية لاستبقائك واستصلاحك، وأتوقّف عن امتثال بعض المأمور فيك ضنا بالنّعمة عندك، ومنافسة في الصنيعة لديك، وتأميلا لفيئتك وانصرافك، ورجاء لمراجعتك وانعطافك، فقد يغرب العقل ثم يؤوب، ويعزب اللّب ثم يثوب، ويذهب الحزم ثم يعود، ويفسد العزم ثم يصلح، ويُضاع الرّأي ثم يستدرك، ويسكر المرء ثم يصحو، ويكدر الماء ثم يصفو، وكل ضيقة إلى رخاء، وكل غمرة فإلى انجلاء، وكما أنك أتيت من إساءتك بما لم تحتسبه أولياؤك، فلا بدع أن تأتي من إحسانك بما لا ترتقبه أعداؤك، وكم استمرت بك الغفلة حتى ركبت ما ركبت واخترت ما اخترت؟

فلا عجب أن تنتبه انتباهة تبصر فيها قبح ما صنعت وسوء ما آثرت، وسأقيم على رسمي في الإبقاء، والمماطلة ما صلح وعلى الاستيناء والمطاولة ما أمكن طمعا في إنابتك وتحكميا لحسن الظنّ بك، فلست أعدم فيما أظاهره من أعذار، وأرادفه من إنذار، احتجاجا عليك واستدراجا لك، فإن يشأ الله يرشدك ويأخذ بك إلى حظك ويسددك، فإنه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير.

وزعمت أنك في طرف من الطاعة بعد أن كنت متوسطها، وإذا كنت كذلك فقد عرفت حاليها وحلبت شطريها، فنشدتك الله لما صدقت عما سألتك، كيف وجدت ما زلت عنه، وكيف تجد ما صرت إليه، ألم تكن من الأول في ظل ظليل، ونسيم عليل، وريح بليل، وهواء ندي، وماء روي، ومهاد وطي، وكن كنين، ومكان مكين، وحصن حصين، يقيك المتالف، ويؤمنك المخاوف، ويكنفك من نوائب الزمان، ويحفظك من طوارق الحدثان، عززت به بعد الذلة، وكثرت بعد القلة، وارتفعت بعد الضعة، وأيسرت بعد العسرة، وأثريت بعد المتربة، وأتسعت بعد الضيقة، وظفرت بالولايات، وخفقت فوقك الرايات، ووطىء عقبك الرجال، وتعلقت بك الآمال، وصرت تكاثر ويكاثر بك، وتشير ويشار إليك، ويذكر على المنابر اسمك، وفي المحاضر ذكرك، ففيم الآن أنت من الأمر، وما العوض عما عددت، والخلف مما وصفت، وما استفدت حين أخرجت من الطاعة نفسك، ونفضت منها كفك، وغمست في خلافها يدك[...]تأمل حالك وقد بلغت هذا الفصل من كتابي، فستنكرها والمس جسدك وانظر هل يحس، وأجسس عرقك هل ينبض، وفتش ما حنا عليك هل تجد في عرضها قلبك، وهل حلّ بصدرك أن تظفر بفوت سريح، أو موت مريح، ثم قس غائب أمرك بشاهده وآخر شأنك بأوله.